يوحنّا الذهبيّ الفم

ثماني عظات في المعمودية [1]

دراسة نموذجية بسيطة للعظتين الأولى والثالثة

الخوري جان عزام

أستاذ مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس

مقدمـــة

"تؤلف هذه العظات الثماني مجموع العظات التي عثر عليها الأب أنطوان فنغر في دير ستافرونيكيتا في جبل آثوس، سنة ١٩٥٥. وما من حجة تصدّنا عن أن نذهب إلى أن يوحنا قد ألقى معظم هذه العظات"[٢].

سنقتصر في دراستنا الموجزة على العظتَين الأولى والثالثة لأنهما تتضمّنان أهمّ ما جاء من موضوعات حول المعمودية، مع العلم أن العظة الثانية والرابعة تتضمّنان موضوعات لاهوتية أخرى مهمّة، لا مجال لذكرها هنا، كما أن العظات الأربع الأخيرة تحتوي على تعاليم أخلاقية ورعوية أكثر منها لاهوتية وعقائدية.

تتميز هاتان العظتان، التي يمكن أن نسمّيهما ميستاغوجية، ببُعْدٍ لاهوتيّ مهمّ يتمحور حول لاهوت المعمودية من الناحية البيبلية، والأسرارية، والكنسية، على أساس كريغمي[٣] مميّز.

١- تقديم العظتين

أ- تقديم العظة الأولى

ليس من الواضح لنا الوقتُ المحدد الذي أُلقيَت فيه هذه العظة، ولكنّها تسبق مباشرة رتبة المعمودية في ليلة الفصح، ويتوجّه فيها القديس يوحنا إلى الذين صاروا مستعدّين لدخول "زمن الفرح والحبور الروحيّ، موضوع شوقنا وحبّنا"، وموضوع العظة الأساسيّ هو تهيئة الذين يستعدّون للعماد، الذين يشبّههم بالعروس "التي تستعدّ لتلج خدر العريس المقدّس"، لأنّ "ما يجري اليوم يجوز أن ندعوه عرسًا من غير أن نضلّ".

تبدأ هذه العظة إذًا بشرح معنى هذا العرس الروحيّ مؤكّدًا أنّه يصير بفضل "جودة المعلّم المحبّ البشر اللامتناهية"، لأنّ الذي خلب لبّه "ليس عذوبتها ولا جمالها، ولا حتّى نضارة جسدها يوم استقبلها، فقد كانت قبيحة ومشوّهة وملطّخة كلّها بدناءتها، حتى ليُقال فيها إنها متمرّغة بجملتها في حمأة خطاياها. ولقد ولج بها، على حالتها تلك، إلى عتبة الخدر". ويسترسل الواعظ في شرح هذه النعمة الإلهيّة المجانيّة في المقاطع الأولى (١-١٠)، مرتكزًا على أقوال القديس بولس وبخاصّة ٢قو ١١: ٢: "لقد خطبتكم لرجل واحد لأهديكم عذراء عفيفة للمسيح"، شارحًا معاني هذه العفة التي

(١) لا نبحث هنا في صحّة إسناد هذه العظات إلى القديس يوحنا الذهبيّ الفم، ونعتبر هذا الإسناد ممكنًا انطلاقًا مما يؤكّده الذين عرّبوا العظات عن النصّ اليونانيّ المنشور في سلسلة Sources chrétiennes, no 50 bis، ونشروها في هذا الكتاب: **يوحنا الذهبيّ الفم، ثماني عظات في المعمودية**، ترجمة ج. معلوف، م. عون (سلسلة النصوص اللترجية، ٤)، منشورات المكتبة البولسية، جونيه، ١٩٩٣. نرتكز في دراستنا هذه إلى النصوص المعرّبة في هذا الكتاب.

(٢) نفس المرجع، ص ٢١.

(٣) من اليونانية *kerygma*، أي إعلان الخبر السارّ والدعوة إلى التوبة وتغيير الذهن.

تصير بفضل "إدراك العروس للشرور التي تحرّرت منها ومعاينتها الخيرات التي ستنعم بها". ويؤكّد أيضًا وأيضًا على فيض محبّة المسيح لها بالارتكاز على نص المزمور ٤٤: ١١: "إسمعي، يا ابنتي، وانظري وأميلي أذنك، وانسَي شعبك وبيت أبيك، فيصبو الملك إلى حسنك"، مؤكّدًا، في المقابل، على ضرورة تخلّي المستعدّين للعماد عن ماضيهم الشرير ليستقبلوا "محبّة الله الممتنعة الوصف وعنايته الفائقة" هذه.

ويكمل الشرح في المقاطع اللاحقة (١١-١٨) مركّزًا على معنى هذا الاتحاد الكامل بين العروس والعروسة بالارتكاز على نصّ سفر التكوين: "لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته، فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا". ويعبّر، انطلاقًا من هذا "الجسد الواحد"، عن أهمّيّة سرّ الزواج، وبالتالي عن السرّ الفائق الذي يتحقّق في زواج المسيح بالنفس المعمدّة، مؤكّدًا مرّة جديدة على مجانية الاختيار الإلهيّ الذي لا يسأل عن أصل من يتزوجهم وفصلهم، بل يسارع إلى خلاصهم "بنعمة وسخاء ومجّانيّة في العطاء". أما عن هدايا هذا العرس الروحيّ، فهي تتلخّص ببذل العروس نفسه عن العروسة، كما يؤكّد ذلك بولس في الرسالة إلى أهل أفسس، وبموافقة المعمّد فكريًّا "على هذا التحوّل الحاصل".

في المقاطع اللاحقة (١٩-٣٠) تعليم عقائديّ على أساس أنّ "الإيمان أساس التقوى"، وهو عن الإيمان بالآب والابن والروح القدس، وضرورة الحذر من التعاليم الضالّة والهرطقات المنتشرة ، وبخاصّة البدعة الأريوسيّة التي لا تعترف بالابن والآب من جوهر واحد.

المقاطع الأخيرة (٣٠-٤٧) تتضمّن تعاليم أخلاقية عن التواضع والوداعة، وحثًّا للنساء على عدم التلهّي بالزينة الخارجيّة، وتشجيع على عدم الانجرار وراء أكاذيب العرافة والسحر...

ب- تقديم العظة الثالثة

من المرجح أن هذه العظة قد ألقيت في خلال الاحتفال بمعمودية الموعوظين الذين قبلوا في عداد المختارين، ومن المرجح أن هذه الرتبة تصير في ليلة الفصح خلال الاحتفال بالأفخارستيا الفصحيّة كما جرت العادة، وكما هو واضح من خلال لجوء القديس إلى مقابلات عديدة للحدث مع ما حدث في الخروج وسيناء والعهد الموسويّ القديم.

تبدأ العظة الثالثة في المقاطع الأربعة الأولى (١-٤) بتشبيه الموعوظين "بنجوم من الأرض تضاهي ببريقها نجوم السماوات"، وذلك على قاعدة الإيمان بسر التجسد، أي الإيمان بأن "الذي من السماوات (المسيح الابن) قد ظهر على الأرض"، وعلى قاعدة ما جاء في إنجيل متّى عن الصدّيقين (المؤمنين) الذين "يشعّون كالشمس في ملكوت أبيهم".

تكمل المقاطع الثلاثة اللاحقة (٥-٨) فتركز على التحول الذي حصل في حياة الموعوظين من حياة الأسر للخطيئة إلى حياة الحرية في البر والمواطنة الجديدة في الكنيسة، مع ما يتبع ذلك من نعم ومواهب عديدة لا تقتصر على نعمة غفران الخطايا بل على اقتناء مواهب عديدة مرتكزة على أقوال مختلفة لمار بولس خاصة في روم ٦-٨ حول مفاعيل المعمودية والتبرير بالإيمان.

أما المقاطع الأربعة اللاحقة (٨-١١) فتشجّع الموعوظين في ليلة معموديتهم على الاستعداد للمعركة المستمرّة مع الشيطان في حلبة حياتهم، مع التأكيد بأنهم لن يكونوا وحدهم، بل أن المسيح، حكم هذه المعركة، سيكون إلى جانب المعمّدين الجدد وسيكون ضمانتهم. ويلجأ إلى صورة حلبات المصارعة التي كانت تصير في أيامه للتأكيد أيضًا على أن المعركة تصير أمام الناس والملائكة. ويؤكد على أنهم بانتصارهم سينالون الإكليل، بينما انتصار الشيطان، الحية الروحية، سيؤدي به إلى عقاب جهنم، على مثال الحية في سفر التكوين. ولذلك يشجعهم على التجرد من ثيابهم، وهو أحد العناصر الليتورجية المعروفة في رتبة المعمودية، ليلبسوا ثيابا جديدة، هي بالأحرى أسلحة المعركة الجديدة، أي أسلحة البر والإيمان.

وهنا يستطرد الواعظ في المقاطع الثمانية اللاحقة (١٢-١٩).بموضوعين يتعلقان بدم المسيح الذي يتناوله المعمَّدون الجدد، مؤكّدًا من جهة، بأنه السلاح الأقوى الذي ينالونه في صراعهم مع الشرير، ومشبّهًا هذا الدم برمزه السابق، أي الدم الذي وضع على أبواب العبرانيين في مصر، فحمى أبكارهم من الموت الذي أصاب أبكار المصريين، ومبيّنًا أنّ الشيطان الذي هرب أمام الدم الرمزي، سيهرب بالأحرى أمام الدم الحقيقي، أي دم المسيح. ويؤكد، من جهة ثانية، على قوة هذا الدم الذي سال من جنب المسيح فأعطى المعمودية والأسرار الباقية التي تولد منها الكنيسة، كما ولدت حواء من جنب آدم، مع العلم أنّ هذا الدم هو الغذاء الذي يغذّي به المسيح الذين ولدهم من جنبه.

أخيرًا، يرتكز القديس على ما سلف ليستنتج، في المقاطع المتبقية (٢٠-٢٧)، بأنّ ما يحدث في المعمودية هو عهد مقدس بين المسيح والمعمَّدين، يحلّ محلّ عهد الخروج وسيناء، لأنّ هذا الأخير قد تمزّق بسبب الخطايا، بينما الجديد حقّقه المسيح بأن سمّر صكّ الذنوب على الصليب. وهنا يلجأ إلى مقارنات عديدة بين ما حدث إبان الخروج وما يحدث في المعمودية، مستعملاً كلام القديس بولس الذي يقول إنّ هذا العهد ليس مكتوبًا بالمداد بل بالروح، ويقوم على رفض طغيان الشيطان والاعتراف بسيادة الله الوحيدة، وهنا تلميح آخر إلى أحد عناصر رتبة المعمودية، أعني رتبة طرد الشياطين الكبرى الموجودة إلى الآن في كل طقوس المعمودية، والتي تقوم على نكران الشيطان وعلى الاعتراف بالإيمان. ولا يخلو الأمر طبعًا من تشجيع للمعمَّدين الجدد على عدم التراخي، وتحريض على التقدم من مائدة المسيح التي تحتوي على كل الخيرات.

٢- تحليل لاهوتي

تتميز هاتان الكرازتان بنَفَس لاهوتي قوي، له ثلاثة محاور: بيبلية وأسرارية وكنسية، وهذه الثلاثة مرتبطة فنعرضها معًا.

تركّز العظة الأولى، كما قلنا، على مقابلة المعمودية بسرّ الزواج، مبيّنة أنه زواج روحي يصير بين المسيح والمعمَّدين. لهذه المقابلة أهمية فائقة لأنها تشرح الزواج المسيحي على خلفية بيبلية وأنتروبولوجية مرتكزة على ما جاء في سفر التكوين، حول اتحاد الرجل بزوجته اتحادًا سريًا كاملاً فيصيران جسدًا واحدًا، بل أن الرجل يضحي للمرأة "أبًا وأخًا وزوجًا"، والعكس صحيح. لهذا الاتحاد إذا مفاعيل عديدة، تبدأ بالتحوّل من ارتباط الزوج والزوجة مع العائلة الأصلية، إلى ما هو أكثر من ارتباط، أي إلى "اتحاد" نهائي ودائم في العائلة الجديدة. يفترض هذا الارتباط الجديد تخلاًّ كاملاً عن الماضي وانفصالاً دائمًا عن العائلة الأصلية، ويترتب عليه واجب الزوجين في تبادل الهدايا، علامة على الحب الذي يجمعهما. انطلاقًا من هنا، يفهم يوحنا عرس المعمودية الروحي بين المسيح والمعمد، معتبرًا، بالارتكاز على نص الرسالة إلى أهل أفسس (٥: ٢٥-٢٧) أن المعمودية هي اتحاد كامل بالمسيح. ولذلك فهي تفترض تخلاً كاملاً من المعمَّد عن حياته الماضية بما فيها من وثنية وخطايا – وهي رمز لعائلته الأصلية – ليصير واحدًا والمسيح، الذي لا يأبه لبشاعته وحمأة خطاياه، بل "يرضى بسفك دمه من أجل الزوجة التي ستتحد به"، إذ أنه "أحاط عروسه بالعناية كي يقدسها بدمه الخاص، ويقدمها لنفسه كنيسة مطهَّرة ومجدَّدة بماء العماد المقدس. ولقد أراق دمه وعانى الصليب من أجل أن يمنحنا نعمة التقديس وينقينا بغسل الميلاد الثاني".

أما في العظة الثالثة، فيلجأ يوحنا إلى المقابلة بين حقائق سر المعمودية ومفاعيله من جهة، وبعض الحقائق الثابتة في التاريخ الخلاصي، من جهة ثانية.

أول مقابلة مع العهد القديم هي في إطار حثه الموعوظين الجدد على مصارعة الشرير، حيث يؤكّد بأنّ الانتصار على الشرير ينيل المعمَّد الإكليل، ولكنه يؤكّد أيضًا أن انتصار

الشرير على المعمَّد ليس انتصارًا، بل يستجلب عليه العقاب والاندحار إلى جهنم، وهنا يذكر ما حدث بعد خطيئة آدم وحواء، عندما نالت الحية المجربة عقابًا قاسيًا على أثر انتصارها على الإنسان الأول، بدلاً من التمتّع بهذا الانتصار. ومع أنه لم يذكر الرحمة الكبيرة التي أظهرها الله لآدم وحواء بعد السقطة، ولكنّه سبق وأكّد أنّ المسيح وإن كان الحكم في صراع الإنسان مع الشرير، إلا أنه "لا يتوسّط الفريقين في المعركة التي نجابه فيها الشرير، بل يكون لنا بكلّيته... أما أنا، فإذا حصل لي أن تعثّرت، فهو يمدّ لي يده ويجعلني أنتصب، منتشلاً إياي من سقطتي، لأنه قيل: دوسوا الحيات والعقارب وقوة العدو" (لو ١٠: ١٩). من الواضح إذًا أنّ العقيدة الثابتة في تعليم يوحنا البيبلي هي أنّ محبة الله تبقى دائمًا إلى جانب الإنسان، وبالأحرى إذا سقط، وذلك بهدف إقامته من السقطة. هذا هو جوهر الكرازة التي، وإن أظهرت مفاعيل الخطايا السيئة على الإنسان، إلا أنّها تؤكّد له دائمًا جوهر الإيمان المسيحي، ألا وهو أنّ المسيح جاء، لأنه وجد أن خطيئة آدم لم تبقَ مفردة، مع أنها هي التي ذيّلت صك الاستدانة، ولكنها قد أثقلت بالهفوات اللاحقة، "فجلبت علينا اللعنة والخطيئة والموت والدينونة بالناموس. بيد أنّ المسيح أبطل ذلك كلّه مسامحًا إيّانا، كما يقول القديس بولس: لقد محا المسيح الصكّ المكتوب علينا الذي كان ضدّنا بأحكامه، وأزاله مسمّرًا إيّاه على الصليب" (قول ٢: ١٤). الخبر السارّ إذًا هو في ديمومة المغفرة الإلهية بالمسيح. ولكن لكي يقبل المعمَّد هذه المغفرة المجانية، ويعيش في ضمانة حبّ المسيح له ودفاعه عنه، يحتاج إلى أن يخلع عنه ثيابه، أي الإنسان العتيق، ويلبس الأسلحة الجديدة، أي الإنسان الجديد، المتميز بالبر والإيمان، أي بالثقة التامة بمن حرّره ويدافع عنه. وهذا ما سيعبّر عنه المعمَّدون الجدد في رتبة نكران الشيطان من جهة، وإعلان الإيمان، من جهة أخرى.

المقابلة الثانية مع العهد القديم تأتي في إطار الدعوة إلى الصراع مع الشيطان، إذ يؤكد يوحنا للمعمَّدين الجدد قوة دم المسيح الذي سيتناولونه كسلاح في صراعهم مع الشرير. وهنا يجري مقابلة بين دم الحمل المذبوح الذي لطخ على أبواب العبرانيين ليحميهم من ضربة الملاك المبيد لأبكار مصر. ويؤكد بأن فاعلية ذلك الدم في حماية أبكار العبرانيين ليست من ذاته بل من كونه رمزًا لدم المسيح. فدم الحمل ليس سوى رمز، ومع ذلك أبعد الملاك المبيد عن الأبواب المرشوشة به، فكم بالأحرى دم المسيح الذي هو حقيقة، أن يبعد الشيطان عن فم المعمَّد وقلبه! لا تكمن أهمية هذه المقابلة بين دم الحمل ودم المسيح في وجه الشبه بين الرمز والحقيقة فقط، بل أيضًا في كون الدم الأول قد هيّأ للتحرّر من عبودية مصر في إطار الفصح اليهودي الذي هو عيد العهد القديم ومركز الإيمان اليهودي، كما أنّ دم المسيح هو العهد الجديد الذي هو أيضًا وبشكل كامل ختم التحرّر النهائي للمعمَّدين الجدد من الخطيئة والموت، أي فصح خلاصهم بالمسيح.

هناك مقابلة أخرى مهمّة جدًا هي أيضًا بين ولادة الكنيسة من جنب المسيح وتكوين حواء من جنب آدم، وذلك في إطار التشديد على كون المعمودية وباقي الأسرار التي تكوّن الكنيسة وتغذّيها قد تدفقت من جنب المسيح المطعون بالحربة، مع تشديد الواعظ على أولوية سرّ المعمودية، ثم باقي الأسرار، بالارتكاز على قول الإنجيل: "فخرج من جنبه ماء ودم"، إذ أنه بحسب يوحنا، الماء يرمز إلى المعمودية، والدم إلى باقي الأسرار. ويكمل في مقابلته الرمزية بالتنبيه إلى أن ولادة الكنيسة حصل بموت المسيح، كما كونت حواء من جنب آدم إبان نشوته، مؤكّدًا بذلك أيضًا على أنّ الموت ليس سوى رقاد. في هذه المقابلة الأخيرة تشديد واضح على ارتباط حدث المعمودية ببعدين مهمّين: البعد الأول هو ارتباط الأساسي مع سرّ الافخارستيا وباقي الأسرار التي هي الغذاء الأساسي للمعمَّد، والعضد له في حياة إيمانه وأمانته للعهد مع المسيح. والبعد الثاني هو ارتباط المعمَّدين

بالكنيسة لأنها هي التي "ولدت من هذين السرَّين، بواسطة غسل الميلاد الثاني والتجديد في الروح القدس". فليست المعمودية انتماء فرديًا أو شخصيًا للمسيح فحسب، بل هي أيضًا انتماء إلى الكنيسة المكوَّنة من جماعة المعمَّدين معا.

المقابلة الأخيرة مع العهد القديم، نجدها في سياق تشبيه المعمودية بالخروج من مصر ومسيرة الصحراء، حيث يقرأ يوحنا بطريقة رمزية أحداث الخروج ومسيرة الصحراء ليبيِّن للمعمَّدين أن معموديتهم قد أعطتهم اختبارًا مشابهًا لقدرة الله ومرافقته للعبرانيين، بل اختبارًا أعظم وأكمل لأنه، إذا كان "موسى أجود رجال الأرض"، فبالأحرى "أن نخلع هذه الصفة على "موسانا" (المسيح)، لأنّ الروح القدس المساوي له في الجوهر قد آزره..."، ومع أنّ المسيح نفسه قد رافقهم – وهذه استعارة من تفسير بولس الرسول للصخرة الروحية التي كانت ترافقهم، أي المسيح – ، فكم بالأحرى سيسير معنا الآن؛ وإذا كان اليهود لم يستطيعوا أن يحدّقوا بوجه موسى الممجَّد، وهو ليس سوى خادم للسيد، فأنت قد عاينت وجه المسيح في مجده"...

نكتفي بهذا القدر الموجز من التحليل لبعض العناصر اللاهوتية، وننتقل في ما يلي إلى تقديم المفتاح اللاهوتي الأساسي لهاتَين العظتَين، أعني البعد الكريغمي الذي يشكل ركيزة التعليم اللاهوتي والأسراري ومنطلقًا لفهم البعد الأخلاقي والسلوكي، الذي، وإن لم نعالجه هنا، إلا أن عظات الذهبي الفم الثمانية تذخر به.

٣- البعد الكريغمي

لا يمكننا فهم عظات الذهبي الفم إلا من خلال فهم البعد الكريغمي للمعمودية، كما يبرزه دائما في العظات الأربع الأولى، وبشكل خاص في العظتَين الأولى والثالثة اللتَين نحن بصددهما. نتناول إذًا هاتين العظتين من هذا المنظار، لأن لاهوت يوحنا كما غيره من الآباء القديسين، كما بولس والكتاب المقدس كله، يبني تعليمه اللاهوتي والأخلاقي على إعلان الكريغما الذي يساعد الموعوظ على تغيير في ذهنه، فيقوده ذلك حتمًا إلى الإيمان بالعقيدة والأسرار وإلى تغيير مسلكه الأخلاقي.

فما هو إعلان الكريغما في هاتين العظتين اللتَين أسمح لنفسي أن أسميهما كرازتين منذ الآن فصاعدا؟

باختصار، يتضمن الكريغما ثلاثة مراحل، تتّسم كلها بالأسلوب الإعلاني وقد تتداخل أو تأتي الواحدة قبل الأخرى. وهذه المراحل هي: (١) إعلان واقع الخطيئة والموت، – ليس بالمعنى الأخلاقي بل الكياني – الذي كان موجودًا فيه طالب العماد قبل الموعوظية؛ (٢) إعلان الحبّ الإلهي المجاني الذي انتشل الإنسان من واقع الخطيئة وأعطاه المغفرة والحياة الجديدة بالإيمان في المسيح؛ (٣) حثّ طالب العماد على التحول الذهني والكياني من الحياة الماضية إلى الحياة الجديدة. هذه الإعلانات الثلاثة هي التي تتحكّم بالمضمون العقائدي للكرازة؛ ورتبة المعمودية بكل تفاصيلها تُظهِر، من خلال الصلوات والأفعال الأسرارية، ما أعلن عنه في التعليم العقائدي؛ ثم يأتي أخيرًا التعليم الأخلاقي ليبيّن ما هي الثمار المسلكية التي تنتج عن هذا التحوّل الذهني والكياني من الإنسان القديم إلى الإنسان الجديد بالمسيح.

يذكّرنا هذا الأمر بقول المسيح الشهير: "ليس من شجرة رديئة تعطي ثمارًا طيبة، ولا من شجرة طيبة تعطي ثمارًا رديئة! وقوله أيضًا: لا يوضع خمر جديد في آنية عتيقة! وبهذا المعنى قال القديس بولس إن الشريعة الأخلاقية لا تبرّر الإنسان، أي أنها لا تجعله قادرًا على أفعال البر، لأنها تكتفي بإظهار ما هو صالح وما هو سيّء دون القدرة على تغيير ذهنه وقلبه؛ فالإيمان هو الذي يبرّر الإنسان، لأنه يغير قلبه وكيانه من الداخل فيجعله قادرًا على القيام بأعمال البر. والقديس الذهبيّ الفم يتبع عن كثب هذه الحقيقة في كرازته، من هنا قوله في الكرازة الأولى، المقطع ٢٠: "بما أن الإيمان هو أساس التقوى، فحري بنا أن نتوقف

عليه، بعض الشيء كي نتمكّن من رفع البناء دون خوف، بعد أن نكون قد أرسينا هذا الأساس الراسخ". من جهة أخرى، يبيّن القديس ماهية الإيمان، في معرض تشبيه المعمودية بسر الزواج، بالتوجّه مباشرة إلى طالب العماد قائلاً: "أرأيت كيف أنه بقوله: ليطهرها ويقدسها لنفسه لا كلف فيها ولا غضن، يطلعنا على حالتها المدنسة التي كانت تحياها سابقًا؟ ألا تُمعنوا، يا جنود المسيح الجدد، في هذا كله، غير متوقّفين على جسامة بؤسكم وغير آبهين لفداحة خطاياكم...؟ فها قد وقفتم على سخاء المعلّم وعاينتم فيض نعمته وعظمة عطيته التي منحكم إياها... ألا اقتربوا منه بطيبة خاطر متخلّين عن كل ما فعلتموه حتى الآن، ولتظهر موافقتكم الفكرية التحوّل الحاصل". هذا الإعلان مزدوج في البداية، فهو يتضمّن، من جهة (١) اعترافًا بفداحة الخطايا، ويؤكّد، من جهة أخرى (٢) سخاء المعلم وفيض نعمته، ويليه بعد ذلك إعلان ثالث (٣) أي الدعوة إلى إظهار التحوّل الحاصل من خلال حركتَين: الابتعاد عن الخطيئة والاقتراب من المسيح. وهاتان الحركتان تشكلان جوهر ما نسمّيه رتبة طرد الشيطان الكبرى في رتبة المعمودية، والتي تقوم على نكران الشيطان والاعتراف بالإيمان. كما أنّ رتبة النزول في جرن المعمودية والصعود منه تعبّر بدورها عن جوهر ما تمّ إعلانه: ينزل الإنسان في مياه المعمودية بعد أن يخلع عنه ثيابه القديمة، – وهي رمز لذهنية الإنسان القديم المستعبَد للخطيئة– ويدفن برغبة شديدة، وبقوة السر المقدس، إنسانه العتيق في مياه المعمودية، أي أنه يتنكّر لهذا الإنسان ويتخلّى عنه، ثم يصعد، بقوة السر أيضًا، إنسانًا جديدًا ذا ذهن جديد وقلب جديد، فيلبس الثياب البيضاء علامة على التحول الجوهري في طبيعته التي طُعِّمَت بالطبيعة الإلهية بالمسيح وبختم الروح القدس[٤].

نجد بنية الكرازة نفسها في المقطعين ٢٥–٢٦ من العظة الأولى عندما يتوجه القديس إلى طالب المعمودية، في نهاية تعليمه العقائدي عن الإيمان بالثالوث، إذ يقول: "فاعلم إذن أن ما من خطيئة، مهما كانت عظيمة، بوسعها أن تجرّد المعلّم سخاءه! إذا كان أحد فاسقًا أو زانيًا، مخنّثًا أو لوطيًا، عاهرًا أو سارقًا، جشعًا أو سكيرًا أو عابدَ أصنام، فقدرة العطية وجودة المعلّم هما من الشدة بحيث يمحوان كلّ شيء، جاعلتَين هذا الإنسان أكثر تألّقًا من شعاع الشمس، شرط أن يبيّن عن حسن نية. تأمّل إذًا عظمة عطية الجودة الإلهية، واستعدّ قبل الأوان... بامتناعك عن الشر ومزاولتك الأعمال الصالحة". هنا أيضًا، نجد الإعلانَين الأساسيَّين عن (١) واقع الخطايا، من جهة (فسق، زنى، سرقة، إلخ.)، وعن (٢) قدرة المعلم (المسيح) على محو الخطايا وتغيير الكيان الجوهري للمعمد، من جهة أخرى. مع هذا التأكيد بأنّ الأمر يفترض "حسن نية" لدى طالب العماد، أي الإيمان بهذه القدرة والرغبة في هذا التحوّل. أمّا الإعلان الثالث، أي الدعوة إلى التخلي عن الشرّ ومزاولة الأعمال الصالحة، فيأتي كنتيجة لهذا التحوّل.

يمكننا أن نسوق أمثلة عديدة أخرى، ولكننا نكتفي بنقل حرفي للمقطع ٥ من الكرازة الثالثة، حيث يعبّر الكارز عن جوهر هذا التحوّل في حياة الموعوظ، والذي سيختمه الروح القدس في المعمودية، والذي سيقود المسيحي إلى حياة البرّ ومصارعة الشرير: "تبارك الله الصانع المعجزات وحده" الذي يخلق كل شيء ويجدّده[٥]. فالذين كانوا في الأمس

(٤) يشرح الذهبيّ الفم هذه التفاصيل ومعانيها في العظة الثانية التي لم نتطرق إليها هنا؛ راجع المقاطع ٢٢–٢٧ بشكل خاص.

(٥) لاحظ الكلام عن خلق جديد يمهد للكلام عما يحصل في المعمودية.

أسرى، أضحوا اليوم أناسًا أحرارًا ومواطنين في الكنيسة[٦].

خاتمة: قدمنا في هذه الدراسة عظتين من العظات الثماني في المعمودية، المنسوبة إلى القديس يوحنا الذهبيّ الفم، وحاولنا أن نشرح بعض العناصر اللاهوتية البيبلية والأسرارية والكنسية التي تتضمنها هاتان العظتان، كنموذج للكريغما الذي هو في أساس تنشئة الموعوظين العقائدية والأخلاقية وتحضيرهم لنوال سرّ المعمودية.

عمل الكنيسة الأول، وعلى رأسها الأسقف، لا يقوم فقط على تعليم العقيدة والحثّ على السلوك الأخلاقي، لأنّ ذلك يفترض الإيمان لدى من يسمع! العمل الأول هو التنشئة على الإيمان، الذي يشكل الكريغما – الخبر السار – جوهره. هذا ما كان يعيه تمامًا أساقفة الكنيسة وما يزالون. في الأجيال المسيحية الأولى، كان إعلان الكريغما في أساس تنشئة الذين كانوا يرغبون في أن ينتقلوا من ظلام الوثنية إلى نور المسيحية، وهذا ما بيّناه في دراستنا.

أليوم، يشكّ الكثير من المعمَّدين بالتعليم العقائدي للمسيحية، ولا يفقهون تعليم البيبليا كتاريخ خلاصي، ويضعون موضع الشكّ انتماءهم إلى الكنيسة كجسد، ولا يهتمّون بالأسرار المقدسة، وهم أبعد ما يكون عن قبول تعليم الكنيسة الأخلاقي والاجتماعي. اليوم، وقد عادت الوثنية لتغزو الأرض وتتغلغل في قلوب أغلبية مَن نالوا المعمودية، لا عجب أن الأساقفة، وعلى رأسهم السعيد الذكر البابا يوحنا بولس الثاني الكبير، وخليفته البابا الحالي بندكتوس السادس عشر، يطلقون النداء من أجل بشارة جديدة للمعمَّدين أنفسهم. المعمودية لا تعطي الإيمان بل هي ختم له. والذي لم يصل إليه الخبر السار، و لم يختبر الإيمان، فلا تنفعه المعمودية بشيء! وكما قال السعيد الذكر، البابا بولس السادس: المهم هو التنشئة على الإيمان! إن حصل ذلك قبل المعمودية أو بعدها، المهم أن يحصل!

أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني والمجامع المحلية، وآخرها أعمال المجمع البطريركيّ الماروني، تذخر كلها بنصوص عقائدية وكنسية وأخلاقية ورعوية رائعة، ولكنها تشقّ بصعوبة فائقة طريقها إلى التحقق في حياة المعمَّدين والرعية والوطن... فهل نكتفي بالاستمرار في تأليف اللجان؟ أم نقتفي آثار يوحنا الذهبيّ الفم، ونعيد تنشئة المعمَّدين في الرعايا ليستعيدوا إيمان معموديتهم الذي فقدوه، ومن ثَمَّ يصبحون مهتمّين بما نقدّم لهم من تعاليم، وراغبين في عيش الأخلاق الحميدة التي تدعوهم إليها مجامعنا المقدسة؟ وهل نستمرّ في رمي البذور الطيبة على الأرض الحجرة وبين الشوك، أم نهيّء الأرض الطيبة لتستقبل البذور فتثمر ثلاثين وستين ومائة؟

(٦) تعبير آخر عن التحوّل الكياني، من حالة الأسر (للخطيئة) إلى حالة الحرية (في الإيمان)، والمواطَنة الحرة في الكنيسة. هذا التشبيه مهمّ جدًا، لأنّ الذي يكتشف بأنّ الخطيئة تجعله عبدًا، يرغب بذات الفعل، وليس لأنّ أحدًا يفرض عليه ذلك، أن يتحرّر من العبودية. هذا ما نعنيه بالتغيير الذهني الذي يقود إليه إعلان الكريغما. لم يعد الشخص بحاجة إلى من يقول له إفعل كذا، أو لا تفعل! هو بنفسه يرغب في التحول من حالة إلى حالة. وبما أن العبد لا يمكنه أن يحرّر ذاته، كما أنّ الذي يعيش في الخطيئة لا يمكنه التخلّي عنها بقوته، حتى ولو رغب في ذلك، فلا تنفعه العظات الأخلاقية مهما كانت مقنعة! إنه يحتاج إلى مَن يحرّره، وهذا هو جوهر الكريغما، أي إعلان قدرة الله، في المسيح القائم، وفي الروح المحيي، على تحريره مجانًا وبحبّ غير مشروط. إنه الخبر السار الذي قامت عليه المسيحية، والذي من دونه، تتحوّل إلى مجرّد عقيدة جامدة، أو مجموعة أخلاقيات لا تخلّص أحدًا!